نقد ابن سبعين لعلوم الفقه والكلام والفلسفة والتصوف في كتاب بد العارف

م. د. طارق هاشم خميس الدليمي
قسم الفلسفة - كلية التربية - جامعة تكريت

مقدمة :

لو أردنا أن نلقي نظرة بسيطة على الحركة الفكرية في الأندلس قبيل عصر ابن سبعين لوجدنا أن عهد الموحدين الذي نشأ ابن سبعين في نهاياته،يعد من أكثر عهود الاستقرار الفكري بالنسبة إلى الفلسفة .

فقد كان من نتاج ذلك العصر فلاسفة كبار امتلأت بهم الدنيا من أمثال ابن باجة(ت ٥٢٢ هـ) وابن طفيل(ت ٥٧١ هـ) وابن رشد(ت ٥٩٥ هـ) وتوزعوا في مذاهبهم بين ارسطيين واشراقيين ،ومما لا يقبل الشك فقد اطلع ابن سبعين على فكر هؤلاء العمالقة ،ولم يعرفهم فحسب، بل عرف من خلالهم فكر اليونان، لأنهم كانوا يحملونه على سبيل التأثير والشرح .وبما إن الرجل كان مسلم الديانة فكان لا بد له من الإطلاع على الفقه الإسلامي ،وان اشتغاله بالفلسفة جعله على احتكاك وان كان غير وديا مع الفقهاء .وكل فيلسوف ،اطلع شاء أم أبى على كل ما جاءت به الفرق الكلامية التي انطوت تحت راية الإسلام تذب عنه ضد هجمات الفرق الكلامية من الديانات الأخرى.وإذا أردنا أن نصنفه فنقول انه كان صوفيا ،وهذه أربعة من العلوم اخترقها ابن سبعين ،ومن الطبيعي أن يكون له موقفا من كل علم من هذه العلوم .فقد هاجم الفلسفة ،لأن الفلاسفة يقلدون - حسب زعمه - أرسطو تقليدا أعمى ،وهاجم بعنف الفارابي وابن سينا أو من اسماهم بالمشارقة ،وكان له موقفا من الفقه والكلام والتصوف منطلقا من موقفه القائل بالوحدة المطلقة ،والتي ينبغي على القائل بها أن يصل إلى رتبة (المحقق) أو أن يكون ملما بعلم التحقيق،وبعبارة أخرى فان الوحدة المطلقة عند ابن سبعين تكون هي موضوع علم التحقيق ،ذلك العلم الذي يحوي

صاحبه كل الكمالات الوجودية والذوقية .ولا يصل المحقق الى هذه الدرجة الا بعد سلوك طريق شاق وطويل يسميه ابن سبعين بالسفر .والمحقق بعد فوزه من هذه السفرة بعلم الوحدة المطلقة يكون حاله أكمل الأحوال وأعلاها .

وعلم الوحدة المطلقة عند ابن سبعين وهو نفسه علم التحقيق هو وحده العلم الإلهي . وبما انه كان قد اطلع على سائر القوانين الشرعية والفلسفية والأدبية، فقد حصرها في خمسة علوم أو مذاهب وصف أربع منها بـ (الناقصة) وهي علوم الفقه والكلام والفلسفة والتصوف .وواحد فقط عده كاملا وهو المذهب الذي يسميه ابن سبعين بمذهب التحقيق .

لقد قام ابن سبعين بتوجيه النقد إلى هذه العلوم في كتابه الشهير (بد العارف) وسنقوم باستخراج الأحكام التي أطلقها وهو ينتقد هذه العلوم .في محاولته لتثبيت علمه الوحيد وهو علم التحقيق .

أما عن الدافع الذي دفعنا إلى ذلك هو الهجوم العنيف الذي لمسناه منه عندما انتقد هذه العلوم حتى ظننا انه سيبطلها جميعا .أو لاحظنا انه ربما عدها من قبيل اللغو .غير أننا تبيننا بعد ذلك إن هدفه كان التنبيه على بعض النقص في تلك العلوم قياسا إلى علم التحقيق. بل ويؤكد على أن هذه العلوم لا بد منها للمسترشدين أو الباحثين عن علم التحقيق.كما تبين لنا ونحن نخوض في هذا الموضوع انه قد ألم بكل هذه العلوم التي انتقدها .إلماما يجعله على أعلى درجات العلم بها .فكان فقيها كبيرا وفيلسوفا بارعا ومتكلما نابغا وصوفيا ذوقيا عرفانيا ممتازا. وهذا يدل على موسوعية الرجل ورجاحة عقله وسعة علمه .

نشأة ابن سبعين :

أجمعت المصادر التي بحثنا فيها عن سنة مولد بن سبعين على انه ولد في عام (٦١٤ هـ)من أسرة عريقة ومن أبوين كان يشار اليهما .وان اسمه عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد .وان أباه قد تولى أمر المدينة على نحو ما يستفاد من قول ابن الخطيب في الاحاطة وهذا نصه : " كان ابن سبعين من أبناء الاصالة في بلده .وولي أبوه بها خطة المدينة وبيت نبيه "[١].ويروى إن جدوده كان "يشار إليهم ويصول في الرياسة والحسب والتعيين عليهم "[٢].

ومن هنا يتبين لنا إن ابن سبعين ينتمي إلى أسرة نبيلة كان لها شان بالأندلس .وهذا يفسر لنا كم كان ابن سبعين معتدا بنفسه لنشأته في مثل هذه الأسرة. ويقول ابن الخطيب في ذلك تشأ ترفا مبجلا في ظل جاه وعز ونعمة لم تفارق معها نفسه البأو (أي الفخر) [٣].ويحدثنا من قام بالترجمة لابن سبعين بأنه كان في طور نشأته بالأندلس جادا في حياته بعيدا عن اللهو والترف ،تاركا للرياسة الدنيوية التي وجدها في أسرته .ويبدو كذلك انه صاحب الفضل الأول في تكوين شخصيته العلمية . والى هذا يشير تلميذه يحيى بن احمد قائلا : " انظر في بدايته وحفظ الله له في صغره .وضبطه له من اللهو واللعب .وإخراجه من اللذة الطبيعية التي هي في جملة البشرية.وتركه للرياسة العرضية المعول عليها عند العالم مع كونه وجدها في آبائه . وهي الآن في أخوته ..وانقطاعه إلى الحق انقطاعا صحيحا تعلم تخصيصه وخرقه للعادة ،ثم انظر في تأييده وفتحه من الصغر وتأليف كتاب " بد العارف " وهو ابن خمس عشرة سنة .وفي جلالة هذا الكتاب .وكونه يحتوي على جميع الصنائع العلمية والعملية .وجميع الأمور السنية .تجده خارقا للعادة .وفي نشأته ببلاد الأندلس ولم يعلم له كثرة نظر.وظهوره فيها بالعلوم التي لم تسمع قط.تعلم انه خارق للعادة" [٤].هذا بالنسبة إلى الطور الأول من حياة ابن سبعين .أما عن الطور الثاني من حياته والذي بدأ بارتحاله من مرسية حوالي ٦٤٠ هـ إلى بعض بلاد الأندلس ثم شمال أفريقيا ومصر وينتهي بدخوله إلى مكة سنة ٦٥٢ هـ .فقد اختلف المؤرخون في سبب خروجه من الأندلس فأولئك الذين هم خصومه يقولون انه نفي من المغرب بسبب كلمة كفر صدرت عنه وهي قوله " لقد تحجر ابن آمنة واسعا بقوله لا نبي من بعدي ويرون فيها انه كان ينكر النبوة .ويعتبر أنها شيء كسبي " [٥]. وهناك من يرى في هذا الكلام كثير من التجني على ابن سبعين الذي كان يعظم النبوة .ويؤمن بالنبي وقال بعضهم عند إيراده جملة من رسائله .أنها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوة وإيثار الورع" [٦].

أما في الجانب الآخر وأعني به أنصار ابن سبعين.فإنهم يرون في هجرته احد مفاخره .ودليلا على كونه وارثا مخصصا فيقول تلميذه يحيى ابن احمد: "وانظر في خروجه عن الأهل والوطن الذي قرنه الحق مع قتل الإنسان نفسه .تعلم تخصيصه وخرقه للعادة" [٧].

أما المنصف من الآراء فقد رجحت هجرة ابن سبعين من الأندلس إلى هجوم الفقهاء عليه وخوفه منهم "فقد كان الاندلسيون يضيقون بكل نظر فلسفي حر ،وهم قد أحرقوا من قبل كتب الغزالي حينما وفدت إلى الأندلس مع اعتدالها"[٨].وكلنا يعرف أخبار قتل الكثير من الصوفية المتفلسفين الذين لقوا نهاية شنيعة مثل ابن قسي وابن برجان وابن العريف وغيرهم .أما في خبر وفاته فيذكر ابن الخطيب في الاحاطة انه توفي في يوم الخميس التاسع من شوال سنة ٦٦٩ هـ[٩].ويتفق معه في ذلك الغبريني[١٠].ويذكر ابن كثير وفاته في الثامن والعشرين من شوال من نفس السنة[١١]. أما عن الكيفية التي مات عليها فقد أختلف فيها هي الأخرى ،فيقول صاحب فوات الوفيات في رواية غير مؤكدة عن انتحار ابن سبعين بأن قطع شرايين يده حتى تصفى دمه.[١٢] وكان أن فتحت هذه الرواية الباب أمام خصوم ابن سبعين للنيل منه ، فهي إن صحت فذلك دليل على كفره ولا شك في ذلك ،وهناك رواية أقرب إلى التصديق ،مفادها عداوة بين ابن سبعين ووزير ملك اليمن الذي كان (حشويا) وكان يتحدث عن كراهية هذا الوزير له وليس ببعيد أن يكون هذا الوزير قد اثر على ملك اليمن وأحنقه على ابن سبعين فدبرا معا من يدس له السم للتخلص منه[١٣].ومن المعاصرين من يلوح بانتحاره بدعوى انتهى من أذواقه إلى الفناء عن نفسه والاستغراق في ربه والاتحاد به"[١٤].بينما يرى آخر "ابن سبعين هذه الشخصية الغريبة الشائقة بأقوالها وأفعالها ،وبخاصة فعلها النهائي الحاسم الذي قضت به على حياتها ، فكانت فعلة وجودية من الطراز الأول ،لا بد أن تكون قد قامت على أسس وجودية ونعني بذلك انتحاره بقطعه احد شرايين يده"[١٥].

أما بالنسبة لموقفنا من روايات موت ابن سبعين فقد راجعنا كتب التاريخ الموثوقة والمؤرخون الثقاة من قبيل ابن الخطيب وابن كثير وابن تغري بردي والتنبكي وابن العماد والغبريني وغيرهم ،فلم نجد ما يفيد إن وفاة الرجل كانت غير طبيعية ،وهذا يؤدي بنا إلى القول بناء على هؤلاء الثقاة انه مات ميتة طبيعية.وقد حصل بسبب تناقض روايات موته على شهرة كبيرة .

ابن سبعين يصنف العلوم :

قام ابن سبعين في البداية باستعراض هذه العلوم التي انتقدها فيما بعد .ومن الغريب انه يؤكد أن لكل علم من هذه العلوم دورا في عملية التحصيل المعرفي وانه لا يذمها ذما مطلقا حسب زعمه .ولكنه يعتبر علم التحقيق أو ما يصل إليه المقرب أفضل العلوم .

فمن أسباب كمال علم الفقه .هي معرفة لسان العرب ومعرفة اللغة العربية وحفظ الكتاب والسنة ومعرفة تاريخ الآيات والأحاديث والعلم بالناسخ والمنسوخ والنظر في المحكم والمتشابه وغير ذلك مما هو متعلق بعلوم الكتاب والسنة .والعلم عند الفقيه كما يعرفه ابن سبعين هو : "معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد ومعنى العلم عنده الفقيه" ما يفهم منه خطاب الله تعالى وخطاب رسوله صلى الله عليه وسلم .وينظر ذلك من كلام العرب والسلف الصالح "[٦٦]" .

ومن أسباب الكمال عند المتكلم الأشعري بحسب ابن سبعين فهي سلامة العقل والفطرة .والاجتهاد الكلي .والبحث المسدد .والمعلم الخبير الناصح ويؤكد أيضا: إن السبيل إلى معرفة الأشياء عند الأشعري والدلالة على معرفتها من أربعة أوجه :أولها ما يعلم بالحواس .ثم بالبديهة وهو علم الضرورة عنده .ثم بالخبر ثم بالدليل "[٦٧]" .

ومن أسباب كمال الفلسفة فهي في تحصيل المطالب الأصلية .والعلوم المنطقية.مثل كتاب ايساغوجي والمقولات العشر وباري ارمنياس وانالوطيقي ...الخ. وسعادة المولد .وحسن المعلم .وما أشبه ذلك .وما يلحقها من التجرد والرياضة، والفيلسوف كثير السلاح قليل النطاح .طويل العدة قصير المدة والنجدة ..." "[٦٨]" .

أما أسباب كمال التصوف فالصوفي يأخذ مقدماته من الفقيه في الأعمال الشرعية .ومن المتكلم الأشعري في الاعتقاد .ويركب على ذلك التوجه والمشاهدة والتوكل والتسليم والتفويض والرضا وهذا النوع الأول .والصوفي يرى سبب الكمال التخلي عن غير الله .والتحلي بصفات الله .والتجلي ثمرة ذلك كله .هذا النوع الثاني. والصوفي يرى سبب الكمال الصدق والإخلاص .واستصحاب الحال .وثبوت القدم ، والتجرد المحض .والتخلق الكلي" "[٦٩]" .

هذا بالنسبة إلى العلوم التي ينتقدها ابن سبعين .أما عن العلم الذي يحث على الأخذ بمجامعه وهو علم التحقيق . فإن أسباب كماله عند ابن سبعين هي غير أسباب كماله عند غيره فهي عنده لا تخرج عن إسقاط الاثنينية من الوجود والنظر إلى كل شيء في ضوء الوحدة " أسباب الكمال عند المحقق ....زمان حائل .ومكان آفل . ومضاف زائل .وطالب نائل .وخبير خبره ذات مخبره .وعليم علمه عين معلومه . وحصر ممتد . وقضية تجدد . وفرع هو ذات أصله. ونوع لا عموم لجنسه "[٢٠].

وذلك إن الوحدة المطلقة كما يراها ابن سبعين لا مجال فيها للقول بالزمان والمكان والإضافة .والفرق بين الطالب والمطلوب والخبير والمخبر والعليم والمعلوم والوجود المنحصر والوجود الممتد والفرع والأصل .والنوع والجنس إلى غير ذلك مما يلزم عن مذهبه في الوحدة المطلقة تنتفي فيه جميع الإضافات والنسب نفيا مطلقا. لذلك فان الكامل المحقق لا ينظر إلى كمالات غيره ممن هم في رتبة أدنى من رتبته.بل الكمال عنه على حد تعبيره هو في إهمال ذلك الكمال الذي هو لغيره وتركه لأنه من قبيل الحشو.إذ الكمال الذي للمحقق هو الكمال الذي لا يتصور فيه الزيادة ولا النقصان. ولا كذلك الشأن في الكمال الذي يكون في الإضافة إلى مذهب أو إلى رجل . فالكمال في الحقيقة واحد بالنظر إلى ماهية الإنسان وان كان كثيرا بالنظر إلى لواحقه وكونه.

فالمحقق أو المقرب عند ابن سبعين هو كهف الكمالات . وكنه الامكانات لذلك فإن المقرب لا يذكر مع احد من هؤلاء الفقهاء والاشعرية والفلاسفة والصوفية بوجه .ولا يقع بينهم وبينه مقاربة .لأن المقاربة لا تقع إلا في الأنواع المتفقة بالحدود المختلفة بالكيف . والمحقق خارج عما ذكرناه "[٢١].

موقف ابن سبعين النقدي:

إن محاولة ابن سبعين حصر الكمال الإنساني في شخص المحقق وحده واستبعاد العلوم الأخرى من دائرة الكمال التام يتضح من شدة الحملة التي قادها على الفقهاء والاشعرية والفلاسفة والصوفية .وأمعن في تصرف غريب وبعيد عن المهنية في تجريحهم بغرور شديد واعتداد بالنفس اشد .وكأنه كان يستبعد سائر المذاهب الفكرية على حساب قبول مذهبه الفكري .وهو ما لم يعتده القاريء العربي .وسنقوم

الآن باستعراض موقفه من هذه العلوم ومن حامليها بالمقارنة مع العلم الذي يعتمده وهو علم التحقيق .

١ـ نقده لعلم الفقه :

يرى ابن سبعين إن الفقيه يستند إلى الشريعة ،والتي هي حق بلا شك، إلا انه يرى إن الفقيه يفسد الشريعة بتقديمه تذريعات عديدة تتفرع من الأحكام التي يستخرجها منها ويرى أيضا انه "الفقيه" يفتي أحيانا من عند نفسه بفتاوى قد تختلف مع الشريعة ،ويتمسك كثيرا بالتقليد الأعمى فيقيس اليوم بالأمس ،ويدع الكثيرون فهم الكتاب والسنة في ذلك والأمر ليس كذلك .

ويرى ابن سبعين إن ذلك التصرف ينفر الناس من الشريعة ويصدهم عنها ، وبالجملة فهو في ضلال ليس بعده ضلال ويقول في ذلك : " وأما الفقيه فهو صالح الأصل (يقصد الشريعة التي يستند إليها وهي في ذاتها صالحة) ، فاسد الفرع ،صادق الجنس كاذب النوع ،يتكلم من عند نفسه ،ويقيس اليوم بأمسه ،ويفتي السائل ،ويترك نفسه في رتبة المسؤول ،يزعم انه يفهم كلام الرسل وخير الرسل ،ويعلل دينه ويتممه برأيه واجتهاده ،ويعطل قوله على خبر الذي أخرجه من عباده . ويدفع اليقين بالجهل، ويفعل فعل أبي جهل ،يحجب نور الله تعالى عن عباده بالفروع المعللة . ويتصرف فيهم بغير الكتب المنزلة ،ويصد الناس عن موارد الشريعة وريحانها . ويحضهم على حميمها وغسلينها ،ويفر عن التحقيق ويترك أهله ويمشي على الضلال ويركب جهله، والفقيه ليس بعالم ولا بصاحب حقيقة ولا تعرض لها ،وهو في مذهبه على الحق أكثر من الأشعري فإنه لم يتعد غير مذهبه ولا تخطاه "[٢٢].

ونرى إن ابن سبعين يسرف كثيرا في الحط من قيمة الفقيه وعلم الفقه ،إذ من المعروف إن التفقه في الدين من الأمور التي فرضتها الشريعة على لسان الشارع وباعتراف ابن سبعين نفسه لذلك فإننا نستغرب من تناقضه في إيراد الحديث الحاث على النظر والتفقه والاجتهاد في نفس الكتاب الذي يحط فيه من قيمة الفقيه وعلم الفقه إذ يقول : " والأصح من هذه الأدلة ،الأولى لقوله صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد واخطأ فله اجر واحد "[٢٣].

وكان من الممكن أن يؤشر ابن سبعين مآخذه على الفقهاء وعلمهم من دون أن ينسف العلم ويستبعده من دائرة العلوم الأمر الذي جلب عليه نقمة شريحة كبيرة من الناس التي وجدت في الفقهاء مخرجا من كثير من الأمور التي أشكلت عليهم واستغلقت على أفهامهم،كما لا يمكننا إنكار دور الفقهاء في شرح العقيدة وأحكامها وان اختلفوا فيها .

وليس مبررا أن يشن ابن سبعين حملته على الفقهاء لأن بعضهم ركن إلى التقليد وترك الاجتهاد .أو إن بعضهم قد عني بتفريغ المسائل الفقهية أكثر مما ينبغي فجعل مسائل الفقه أشبه ما تكون بالأحاجي والألغاز.ذلك أن لكل منهجه في البحث والتقصي والحكم والاستنباط.

٢- نقده لعلم الكلام :

عرفنا أن الفقه عند ابن سبعين صالح الأصل فاسد الفرع .وهو حكم ارتضيناه منه لأن فيه شيء من الصحة قدر تعلق الأمر بالإنسان (الفقيه) الذي يكون في اغلب أمره خطاءا.ولكننا وقفنا كثيرا عند حكمه على علم الكلام والأشعري منه على وجه الخصوص فقد عده فاسد الأصل فاسد الفرع معا .لأنه قائم على أساس الجدل والبراهين الصناعية .وعقائد الشريعة التي يدافع عنها المتكلم حق .والحق شاهد لنفسه .فلا حاجة برأيه أن يجدل لنا الأشعري. أو دفاعه عن الشريعة .والحقيقة عند ابن سبعين إن علم الكلام لا حاصل له أو قل هو تحصيل حاصل فيقول في ذلك : وعلم الاشعرية فاسد الأصل قبيح الفرع لا نتيجة له من حيث هو علم .وإنما نتيجته من اجل ما وضع .ولماذا وضع .ولما كان المراد بمذهبه من حيث قطع المخالف للشريعة .والشريعة حق .قيل له صاحب حق بالعرض .وهو في استدلاله وبرهانه مثل من يقول: الثلاثة اقل من العشرة بدليل أن الملك يموت غدا .قيل له : الذي قلت حق .ومثلك باطل ! وكذلك الأشعري لا حقيقة لمذهبه من حيث هو .ولو صمت لكان اخلص له .والتوبة أليق به .وان كان الأشعري يأخذ مذهبه من الكتاب والسنة ويبني عليه فهو بتأويل وتقرير .وهما بالجملة على استقامة شرعية ووعي عقلي والله يلطف بالجميع بمنه وكرمه "[٢٤].

وجدنا إن ابن سبعين يهاجم علما من أعلام علم الكلام الأشعري وهو إمام الحرمين أبو المعالي الجويني والذي اسماه بـ صاحب (الإرشاد) وهو من ابرز مؤلفات المتكلم الأشعري وأقذعه بافضع الألقاب وقرنه بأبي جهل وهامان[٢٥] . ، ووجدناه يطعن بالفخر الرازي ويؤكد على تقصيره وقصور صنائعه .

إن حملة ابن سبعين على الأشاعرة فيها من التعنت الظاهر الشيء الكثير ، وذلك إن من اولويات وأهداف علم الكلام الدفاع عن الشريعة ،على الوجه العقلي ، وقد ظهرت دعوة علم الكلام في التاريخ الإسلامي ،على شكل دعوة تجديدية نحو استخراج أحكام مقبولة ،وتطهير الشريعة مما علق بها من شوائب كثيرة على يد خصوم الإسلام من متكلمي الديانات الأخرى والنحل المختلفة ،أو على يد بعض المحسوبين على الإسلام والمنتسبين اليه من أهل الأهواء والبدع.

٣- نقده للفلسفة :

وإذا قبلنا من ابن سبعين هجومه على الفقه والكلام ،فكيف نقبل منه هجومه على الفلسفة والفلاسفة.فإذا سلمنا بأنه مبتعد عن الشريعة وتوابعها فلعمري إلى أي اتجاه سنصنفه ؟

أ- هجومه على الفلاسفة المسلمين :

شن ابن سبعين هجوما شاملا على الفلسفة ورموزها ،ولم يسلم من هجومه أي من الفلاسفة ،ذلك الهجوم الذي بدا لنا عصبيا مفتقدا للتسلسل التاريخي فنجده يضع ابن رشد مثلا قبل الفارابي وابن سينا والغزالي ،وسنختصر موقف ابن سبعين من كل هؤلاء باختصار .فعن ابن رشد الذي وضعه أول المنتقدين يقول : " وهذا الرجل ابن رشد مفتون بأرسطو ومعظم له ويكاد أن يقلده في الحس والمعقولات الأولى ،ولو سمع الحكيم يقول إن القائم قاعد في زمان واحد لقال به واعتقده ،وأكثر تآليفه من كلام أرسطو أما يلخصها وأما يمشي معها ،وهو في نفسه قصير الباع قليل المعرفة بليد التصور غير مدرك "[٢٦]. وعلى الرغم من القسوة في الحكم على ابن رشد،فإن الغرابة تطغي عليه ،إذ كيف يعقل أن يكون شارح أرسطو الأكبر بلا منازع على هذه الهيئة التي يصورها لنا ابن سبعين، ولا بد من أن يكون قد التبس عليه

وجود الأفكار الارسطية التي كان يعالجها ابن رشد في مؤلفاته . فظن مخطئا إن الرجل ينتحل من أرسطو.

أما عن موقفه من الفارابي فهو مضطرب هو الآخر فيبدأ بالهجوم عليه واتهامه بالاضطراب والخلط والتناقض والتشكك. ومن ثم يمتدحه وهذا الرجل افهم فلاسفة الاسلام وأدراهم للعلوم القديمة وهو الفيلسوف فيها لا غير ومات وهو مدرك ومحقق وزال عن جميع ما ذكرته وظهر عليه الحق بالقول والعمل [٢٧].

وعن نقده ابن سينا فإنه لا يقل قسوة وتهجما عن سابقيه فقد وصفه بالتمويه والسفسطة والكذب وأن مؤلفاته لا تصلح لشيء .وانه مقلد لآراء أفلاطون ومردد لها أما ابن سينا فممود مسفسط كثير الطنطنة قليل الفائدة .وما له من التأليف لا يصلح لشيء. ويزعم انه أدرك الفلسفة المشرقية ولو أدركها لتضوع ريحها .وهو في العين الحمية .وأكثر كتبه مؤلفة ومستنبطة من كتب أفلاطون على انه لم ينسفه تماما وربما أنبه ضميره على قتل النتاج الفكري لابن سينا بهذه القسوة. فقد وردت عبارة وأحسن ماله في الإلهيات الإشارات والتنبيهات وما رمزه في حي بن يقظان [٢٨].ليعيد للرجل بعضا من حقه .

ولم يسلم من نقد ابن سبعين اللاذع حتى شريكه في المنهج والتوجه وأعني به الإمام الغزالي حتى انه حصل على المساحة النقدية الأكبر من بين فلاسفة الإسلام الذين وجه لهم النقد.وقد أسرف ابن سبعين في توجيه النقد إلى الغزالي حتى يخيل للمبصر أن هناك عداءا عقائديا بينهما وان ابن سبعين لم ينطلق من القاعدة الفكرية لنقد الغزالي بل انطلق من قاعدة عصبية: وأما الغزالي فلسان دون بيان .وصوت دون كلام .وتخليط يجمع الأضداد .وحيرة تقطع الأكباد .مرة صوفي وأخرى فيلسوف. وثالثة اشعري ورابعة فقيه وخامسة محير .وإدراكه في العلوم القديمة اضعف من خيط العنكبوت .وفي التصوف كذلك [٢٩]. ولم يعيد ابن سبعين الاعتبار للغزالي كما فعل مع الآخرين بل أصر على الانتقاص منه إلى آخر المطاف : فلا هو خلص إلى التصوف ولا هو قيل فيه فيلسوف وهو مع ذلك كله موقوف وفارح بالذي ظهر له عندما تجرد وانفرد وذلك شيء يصله الممرور ويظفر به بأيسر تناول المفرور[٣٠].أي

إن كل الذي توصل إليه الغزالي بحسب ابن سبعين نوع من الجنون والمرض النفسي ليس إلا .

هجومه على الفلسفة بعامة :

وبعد أن فرغ من نقد الفلسفة الإسلامية ورموزها بالقسوة التي اشرنا إليها . جاء دور الفلسفة على وجه العموم فقد انتقد ابن سبعين مناهج الفلاسفة وطرق تحصيلهم والنتائج التي توصلوا إليها فرآى من جملة ذلك أن الفلسفة لا تنصر الحق . وان كل الذي جاءت به من العلوم الطبيعية والرياضية والمنطقية ليس سوى سفسطة باطلة .وان دليله في ذلك هو إن الحق الذي يزعم الفيلسوف انه باحث عنه هو في نفوس الناس بالفطرة .ولو عكفوا على نفوسهم لوجدوا هذا الحق - الذي يشقى الفيلسوف بالبحث عنه خارج النفس - كامنا فيها .وعندئذ سيتبين لهم إن المنطق الذي يصطنعه الفيلسوف لا غناء فيه .وأنهم في غنى عنه: وأما الفيلسوف فكثير السلاح قليل النطاح .طويل العدة قصير المدة والنجدة .يتعب بحوله وقوته ويشقى بنفسه وهمته .ويعجن قوت قلبه بغير ملح ولا ماء .ويجهد عمره بلم ولما لايدنياه ظفر ولا لأخراه اتجر حرمانه اظهر من ضوء النهار والمصباح .وخذلانه اشهر من الرعد والرياح .يعلل الحق وينصر ضده .ويحفظ الباطل ويبذل فيه جهده .مرة يسفسط بالطبيعة وما بعدها .وأخرى بالتعاليم ومقاصدها .ويطنطن بعد ذلك بالمعاني المنطقية ويموه على المؤمن المقتصر بالألفاظ الوحشية.ولم يعلم إن النظر في قوة النفوس . ولو أن النفوس تمشي نحو الصواب .وكان يوافق كلام الناس أفعالهم بالاستقامة العقلية وإيثار الحق والانقياد له ورجوعهم لأنفسهم لأغناهم ذلك عن المنطق [٣].

وهكذا لم يستثن ابن سبعين من الفلاسفة أحدا .فقد شملهم نقده وطعنه .فهم ينصرون الباطل ويسفسطون بعلوم لا غناء فيها .ولم ينس ابن سبعين أن يوجه نقده إلى اكبر فلاسفة اليونان وهو أرسطو .متهما إياه بالهذيان وان فلسفته التي أعجب بها الناس ليست سوى أزمة ونقمة لا طائل تحتها فقد هاجمه بالاسم والصفة (الحكيم) : ونجعل الكلام على سقطاته (سقطات أرسطو) تأليفا خاصا .فإن حكمته غلبت على جميع الناس حتى انه عندهم هو الحكيم على الإطلاق .وهيهات ! والله لو

علموا الحق .أو لاح لهم شبهات الصدق ما عادت حكمته عندهم إلا أزمة، ورحمته نقمة.وحسناته سيئة .وكلامه هذياناً ، وهو (أرسطو) بالذي يقوله ويفعله نشوان"[٣٢].

ويشمل طعن ابن سبعين فلاسفة اليونان جلهم من أتباع أرسطو .وكذلك أتباعه من المسلمين كما أسلفنا .الفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجة الذين عظموا أرسطو وما كان ينبغي لهم ذلك في رأيه .كما انتقد في غير موضع من كتابه بد العارف مذهب الرواقيين في الألوهية .

٤. نقده للتصوف :

ولم يكن حظ التصوف من النقد بأقل من الفقه والكلام والفلسفة.فقد كان ابن سبعين يرى إن من تمسك بالتصوف لم يتوصل إلى الحق هو الآخر ذلك إن الوصول الذي يتحدثون عنه.يتضمن الاثنينية بين الواصل ومن يصل إليه .وهم فضلا عن ذلك يعدون العوالم مما يشعر بالكثرة الوجودية وهؤلاء الصوفية ينعتهم ابن سبعين بالصم. ويظن ابن سبعين إن حسنات هؤلاء هي سيئات المقربين على نحو ما يفهم من قوله : وهؤلاء الطائفة يعني الصوفية وصولهم لا كالوصول وإدراكهم لا كالإدراك .وبلغوا حيث لا يصح أن يبلغ .ولا هو صحيح ..فأفهم ما يقوله المقرب . ويصح عندك إن حسنات الصوفية سيئات المقربين ... إن العوالم التي يطلقها الصوفية مثل ما تسمعه من مصنفاتهم يسمون عالم العقل وعالم النفس وعالم الملك وعالم الملكوت وعالم الجبروت ...فجميع ذلك عندي هو العالم الأول وهؤلاء هم الذين سميتهم بالصم اعني رجال الرسالة القشيرية "[٣٣].

وينتقد ابن سبعين الصوفية من الواصلين الذين نطقوا من أحوالهم الأولى، واتهمهم بأنهم ممن لم تحذقهم العلوم ولا الصنائع العلمية ولا حققوا المباديء وهم في رأيه قد جاوزوا المقدار بأقوالهم وأحوالهم بوجه ما .وهو حكم يذكرنا بحكم ابن طفيل على الغزالي إذ قال فيه كان من الذين روضتهم العلوم حين وجده لم يبح بما وصل إليه .كما انه انتقد بصورة غير مباشرة الصوفية من أهل الشطحات مثل الحلاج والبسطامي.

ولم يسلم احد من متفلسفي الصوفية من نقد ابن سبعين فبدأ بالذين مزجوا الحكمة بالتصوف فهو يستعيذ من تصريف ابن مسرة الجبلي وفلسفته في الحروف

والأسماء وفهم أقسام بعض السور .ومن فلسفة ابن قسي صاحب (خلع النعلين) في الأسماء والصفات .والكون والوجود .والشفع والوتر .والتوحيد .ومن فلسفة ابن برجان في التصريف بالأسماء .ومن فلسفة النفري في كتابه المواقف .التي يتحدث فيها عن الأسماء والصفات .والمقامات والأرواح .والتلوين والتمكين .والمحية والوجود .والواحد والوحدة .والإضافة المحذوفة والمجردة والشائعة وغير الشائعة ومن فلسفة حكيم الإشراق السهروردي المقتول في كتبه مثل حكمة الإشراق والتلويحات والتنقيحات .الذي يراه ابن سبعين مبنيا على مذهب الفيلسوف اليوناني أفلاطون ....وجميع ذلك عنده .لا خلاص فيه متمم .ولا إخلاص مكمل .وهو مما يدخله الغلط "[٣٤]".

يتبين لنا إن نقد ابن سبعين لعلوم الفقه والكلام والفلسفة والتصوف .جعله يرى فيما يراه أنهم لم يتوصلوا إلى الحق .وان معارفهم هي من باب خداع الناس والكذب عليهم .والسبب في ذلك هو انه يدفعنا للإيمان بعلم (التحقيق) أي التحقق بالوحدة المطلقة على الوجه الذي امن به ابن سبعين .وانهم لم يصلوا إلى رتبة المحقق الكامل الذي اسقط الكثرة من الوجود.

علم التحقيق والواسطة بين الله والعالم :

إن الغاية من نسف العلوم جميعا على شاكلة ما فعل ابن سبعين قد بدأت تتضح لنا الان .فهو يريد منا أن نتبع علم التحقيق أو أن نتبع المحقق .والمحقق عند ابن سبعين هو الواسطة بين الله والعالم بالمعنى الميتافيزيقي .فلما كان النبي هو الواسطة بين الذي يوصل خير الله وإحسانه .والوارث هو الواسطة الذي يأخذ عن النبي ويفيض على العالم .فالوارث هو الفياض على العالم بالجملة .والعالم يقبل الخير وينالة .وكل ماهية يصلها منه بقدر نصيبها .فالعالم يقبل من الوارث في كل زمان .ولما كان العالم يقبل خيره أو وجوده بما يفيض به عليه المحقق الوارث . فالمحقق أو الوارث هو المدبر للعالم بالذات .وهو ابن سبعين نفسه.

يؤمن ابن سبعين بمذهب الوحدة المطلقة وهي موضوع علم خاص يسميه بالتحقيق، والمتحقق بها يكون حاويا لجميع الكمالات الوجودية والعرفانية ويسميه ابن سبعين بالمحقق تارة وبالمقرب تارة أخرى .ولا يصل المحقق أو المقرب إلى هذه

الوحدة المطلقة إلا بعد سلوك طريق طويل شاق يسميه ابن سبعين بالسفر وفي ذلك يقول للإمبراطور فريدريك الثاني أو كما اسماه بصاحب صقلية :"واعلم إن الفيلسوف والصوفي والأشعري ،وبالجملة جميع من تكلم لا يقدرون على إدراكه (يعني علم التحقيق) والاتصاف به ووصف ماهيته دون أن يحققوا علم السفر وتحقيقها على التمام ،وأنا نزعم أن أناضر على ذلك أهل الأرض ... والذي يتكلم بها (الوحدة المطلقة) يقطع رأسه في عالم الشهادة ... وبالجملة لا سبيل إلى الوقوف على شيء من ذلك إلا بالوصول إليه والحلول فيه ،فان من الأشياء التي لم تألفها الطباع ولا علمتها النفوس "[٣٥].

مقارنة محقق ابن سبعين مع غيره :

لنتساءل اخيرا،هل يشبه مذهب ابن سبعين في المحقق أو المقرب مذهب غيره من الصوفية ؟وسنقوم في سبيل الإجابة على هذا التساؤل بجولة خاطفة في مذهب ثلاثة من كبار الصوفية وهم ابن عربي وعبد الكريم الجيلي وابن الفارض .

فابن عربي يذهب إلى إن الله قد شاء أن "يرى عينه في كون جامع يحصر الأمر كله لكونه متصفا بالوجود ويظهر به سره إليه "[٣٦].وهذا الكون الجامع أو الإنسان الكامل عند ابن عربي هو عين جلاء مرآة العالم ،يقابله ابن سبعين بالذهاب إلى إن المحقق هو الوجود كله على نحو ما يقوله عن نفسه باعتباره محققا له حقيقة قديمة روحانية "أنا هو الوجود ،في كل مكان أنا "[٣٧].وكما يفرق ابن سبعين في المحقق بين ناحيتين فيرى إن المحقق له مظهريته الجسمانية الحادثة وحقيقته الروحانية القديمة ،يفرق ابن عربي في الإنسان الكامل بين ناحيتين الأولى خاصة به باعتباره انسانا حادثا ،والثانية خاصة به باعتباره أزليا أبديا فيقول واصفا الإنسان الكامل "هو الإنسان الحادث الأزلي ،والنشء الدائم الأبدي "[٣٨].

ويرى ابن سبعين إن المحقق هو الفياض على العالم وكل ماهية تقبل منه بحسب استعدادها ،وهو بالجملة مدبر العالم كله ،يرى ابن عربي إن قيام العالم بالإنسان الكامل وان العالم "لا يزال محفوظا ما دام فيه هذا الإنسان الكامل "[٣٩].

أما عبد الكريم الجيلي فيذهب إلى القول بان "الإنسان الكامل هو الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره وهو واحد منذ كان الوجود إلى ابد الآبدين ....

وان الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه .فيقابل الحقائق العلوية بلطافته .ويقابل الحقائق السفلية بكثافته [٤٠] .بينما رأى ابن سبعين إن المحقق أو الكامل هو عين الخير وكل الكون ومالك كل لون .وان العوالم كلها حسية ومعنوية متدرجة في حقيقته على الرغم من كونها جملة متجانسة ووحدة خالصة .

ويقفز إلى أذهاننا ونحن نفصل في نظرية ابن سبعين في المحقق، المعنى الحقيقي للقطب عند ابن الفارض الذي يرى إن القطب هو ما تدور به الأفلاك التي يحيط بها وهو قطب معنوي قديم .وهو الروح المحمدي الذي يتحدث ابن الفارض بلسان الجمع معه فيقول :

فبي دارت الأفلاك فأعجب لقطبها الـ　　محيط والقطب مركز نقطة

ولا قطب قبلي عن ثلاث خلفته　　وقطبية الأوتاد عن بدلية [٤١] .

ولعل الفرق بين ابن سبعين وابن الفارض هو إن ابن الفارض حين يتحدث عن نفسه بالنسبة للحقيقة المحمدية يتحدث عن حقيقتين متميزتين .بدليل إن ابن الفارض يتحدث بما يسمى بلسان الجمع في مقابل لسان الفرق وان شئت قلت هو يتحد بالروح المحمدي تارة .وينفصل عنه تارة أخرى .أما ابن سبعين فيتحدث عن المحقق والنبي على أنهما شيء واحد في الحقيقة.

على إن ابن سبعين أمعن في نظريته في المحقق في القول بالوحدة من ابن الفارض في قوله بالقطب .وذلك لان ابن سبعين يرى أن القطب الذي يتحدث عنه ابن الفارض أو غيره من الصوفية هو في مرتبة أدنى بكثير من مرتبة المحقق .

وهكذا يتضح لنا أن ابن سبعين لم يبتكر المحقق أو المقرب .بل سبقه الى ذلك صوفية كثيرون ولكن المسميات هي التي تختلف من صوفي إلى آخر .

نتائج وخلاصة :

كان ابن سبعين معتدا بنفسه وبالنتيجة التي توصل إليها .من خلال اعتقاده بابتكار علم التحقيق والمحقق أو المقرب الذي تحققت به الكمالات كلها .ومن سمات فكره هو تحرره من سيطرة المشائية الارسطية.وتأثره البالغ بالهرمسية فقد بدا واضحا وقوفه على ما كان معروفا للمسلمين من هذه الفلسفة وكتاباتها .ووجدنا ابن سبعين يذكر هرمس في مواضع عديدة من مصنفاته ويصفه مرة بـ (هرمس الأعظم) وهو يرى إن الهرامسة وحدهم الذين وقفوا على علم التحقيق . ويعتقد انه أحيا في كتابه بد العارف حكمة هرامسة الدهور الأولى فيقول :أما بعد فقد استخرت الله العظيم على إفشاء الحكمة التي رمزها هرامسة الدهور الأولية وهو أمر نحسبه لابن سبعين وانه قد اطلع على حكمة القدماء .كما وجدنا انه عرف مذهب المجوس في علم الأنوار.

اتضح لنا على سبيل القطع إن نقد ابن سبعين لعلوم الفقه والكلام والفلسفة والتصوف قد قام على تعصب منه لمذهبه في الوحدة المطلقة فكل من خالفه في هذه الوحدة رماه بالجهل وعدم التحقيق .وعاب عليه صنائعه وعلومه .وأكد على قصوره وضعفه .وكأنه يريد بذلك أن يصب كل هذه العلوم والعلماء في قالبه هو.وقد كان شديد القسوة يصحبه لسان سليط .كان يستعمله بالشتم أحيان كثيرة .وهو مالم نجده عند مفكر من مفكري الإسلام.وكان نقده لعلوم الفقه والكلام والفلسفة والتصوف ينطلق من قاعدة واهية بناها هو وقاس عليها .ولا يخفى الخلل الواضح في هذا الأمر إذ انه يتناقض وأساسيات المنهج البحثي الناجح .

ولكننا مع ذلك استمتعنا بطروحات ابن سبعين لغرابتها وجدتها .ويبدو انه وجد نفسه قادر على أن يخترع شخصية المحقق أو المقرب .لا سيما وان جذورها موجودة في الفكر الصوفي ولكن بتسميات أخرى مثل القطب والإنسان الكامل والحكيم المتأله وخاتم الأولياء وغير ذلك كثير .ولعلنا سلطنا الضوء على فقرة مهمة من فقرات فكر ابن سبعين ألا وهي نقده لعلوم تعاطاها المئات من المفكرين .وضعوا على خارطة الفكر العربي الإسلامي . وأصبح لهم آلاف من الأتباع والمريدين . ربما وقفوا من ابن سبعين موقفنا المستغرب من نقده لها وهدمها .

هوامش البحث :

١. ابن الخطيب ـ لسان الدين ـ الاحاطة في أخبار غرناطة ـ ص ٢٨٢ ـ القاهرة ـ ١٣١٨ هـ .

٢. المقري ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ـ ج ٢ ـ ص٣٩٧ ـ القاهرة ١٩٤٩ .

٣. ابن الخطيب ـ المصدر نفسه ـ ص ٢٨٢

٤. المقري ـ المصدر نفسه ج ٢ ـ ص ٣٩٨ .

٥. ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ١٣ ـ ص ٢٦١ ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ بدون تاريخ .

٦. المقري ـ المصدر نفسه ج ٢ ـ ص ٤٠١ .

٧. المصدر نفسه ـ ج ٢ ـ ص ٣٩٨ .

٨. ابن طملوس ـ كتاب المدخل لصناعة المنطق .نشر آسين بلاثيوس ـ ص ١١ ، ١٢ ـ مدريد ١٩١٦ .

٩. ابن الخطيب ـ المصدر نفسه ص ٢٨٣ .

١٠. الغبريني ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ص ١٤٠ ـ .الجزائر ١٩١٠

١١. ابن كثير ـ المصدر نفسه ج ١٣ ـ ص ٢٦١ .

١٢. الكتبي ـ ابن شاكر ـ فوات الوفيات ج ١ ـ ص ٢٤٧ ـ القاهرة ١٢٩٩ هـ .

١٣. المصدر نفسه والصفحة نفسها .

١٤. حلمي ـ محمد مصطفى ـ الحياة الروحية في الاسلام ـ ص ١٠٣ ـ القاهرة ١٩٤٥ .

١٥. بدوي ـ عبد الرحمن ـ الانسانية والوجودية في الفكر العربي ـ ص ١٠٤ ـ دار القلم بيروت ـ ١٩٨٢ .

١٦. ابن سبعين ،بد العارف ،تحقيق وتقديم جورج كتوره ،ص ٩٥ ،دار الاندلس ، دار الكندي بيروت، ط ١، ١٩٧٨ .

١٧. المصدر نفسه ص ٩٦ .

١٨. المصدر نفسه والصفحة .

١٩. المصدر نفسه ص ٩٧ .

٢٠. المصدر نفسه والصفحة .

٢١. المصدر نفسه ص ٩٨ .

٢٢. المصدر نفسه ص ١٢٣ .

٢٣. المصدر نفسه ص ١٠٠ .

٢٤. المصدر نفسه ص ٩٩

٢٥. المصدر نفسه ص ١٥٢

٢٦. المصدر نفسه ص ١٤٣ .

٢٧. المصدر نفسه ص ١٤٤ .

٢٨. المصدر نفسه والصفحة.

٢٩. المصدر نفسه والصفحة .

٣٠. المصدر نفسه ص ١٤٥ .

٣١. المصدر نفسه ص ٩٦ .

٣٢. المصدر نفسه ص ٢٣٩ .

٣٣. المصدر نفسه ص ١٢٨ .

٣٤. المصدر نفسه . باب القول على التصوف ص ١٢٤ وما بعدها .

٣٥. المصدر نفسه ص ١٥٧ .

٣٦. ابن عربي .محي الدين .فصوص الحكم .نشر د. ابو العلا عفيفي ص ٤٨ القاهرة .١٩٤٦ .

٣٧. المصدر السابق ص ١٥٨ .

٣٨. ابن عربي - المصدر السابق ص ٥٠ .

٣٩. المصدر نفسه والصفحة

٤٠. الجيلي .عبد الكريم - الانسان الكامل في معرفة الاوائل والاواخر .ص ٤٧ - القاهرة ١٣١٦ هـ .

٤١. حلمي .محمد مصطفى .ابن الفارض والحب الإلهي ص ٢٦٥ وما بعدها القاهرة ١٩٤٥ .

قائمة مصادر البحث :

- القرآن الكريم

١ . ابن الخطيب (لسان الدين) الاحاطة في أخبار غرناطة . القاهرة ١٣١٨ هـ .

٢ . ابن سبعين (عبد الحق).بد العارف .تحقيق وتقديم جورج كتوره .دار الاندلس ـ بيروت .دار الكندي بيروت ١٩٧٨ .

٣ . ابن عربي (محي الدين) فصوص الحكم .نشر د. ابو العلا عفيفي.القاهرة ١٩٤٦.

٤ . ابن طملوس. كتاب المدخل لصناعة المنطق .نشر اسين بلاثيوس.مدريد ١٩١٦.

٥ . ابن كثير .البداية والنهاية . مطبعة السعادة . مصر . بدون تاريخ .

٦ . الجيلي (عبد الكريم) الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر القاهرة ـ ١٣١٦.

٧ . الغبريني .عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة . بجاية ـ الجزائر. ١٩١٠ .

٨ . الكتبي (ابن شاكر) فوات الوفيات . القاهرة . ١٢٩٩ هـ .

٩ . المقري .نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . القاهرة . ١٩٤٩ .

١٠. بدوي (عبد الرحمن) الإنسانية والوجودية في الفكر العربي . دار القلم بيروت . ١٩٨٢

١١ . حلمي (محمد مصطفى) الحياة الروحية في الإسلام . القاهرة . ١٩٤٩ .

١٢ . حلمي (محمد مصطفى) ابن الفارض والحب الإلهي . القاهرة – ١٩٤٥ .